جامعة قطر

مجلة

مركز بحوث السنة والسيرة

العدد الثالث

١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م

سنة الرسول صلى الله عليه وسلم
في القيادة وإدارة الحرب

بقلم :

اللواء أ. ح. / محمد جمال الدين محفوظ

عضو المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

جمهورية مصر العربية

مجلة مركز بحوث السنة والسيرة

العدد الثالث - ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م

تمهيـــد :

كانت هجرة المسلمين من مكة إلى المدينة نقطة انطلاق نحو قيام أول مدرسة عسكرية في تاريخ المسلمين . . وقد قامت هذه المدرسة على تعاليم القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة القولية والعملية والتقريرية في كل ما يتصل بتنظيم أمور الحرب من حيث أهدافها وقوانينها وآدابها .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قائد هذه المدرسة ومعلمها الأول وهو المثل الأعلى الذي اجتمع فيه من أوصاف المدح والثناء ما تفرق في غيره ، وهو القدوة المثلى كما يقول الله تعالى : « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة » (الأحزاب ٢١) ، وهو القائد الذي اصطفاه الله ليبلغ أعظم رسالة وجعله تحت حراسته ورعايته حتى كان أفضل قومه ، واستوفى مكارم الأخلاق كل مكرمة لم ينلها إنسان قبله ولا بعده ، حتى خاطبه الله بقوله : « وإنك لعلى خلق عظيم » (القلم ٤) وقوله : « وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما » (النساء ١١٣) ، وحتى حدَّث هو عن نفسه فقال : « أدبني ربي فأحسن تأديبي » ، فلا عجب إذن أن يظهر الرسول القائد صلى الله عليه وسلم في الأمور الحربية ما لا يتسامى إليه قادة الحروب الذين تعلموا فنونها واتخذوها صناعة من عبقرية فذة في القيادة والتخطيط وإدارة العمليات الحربية .

وفي هذه المدرسة تعلم المسلمون الأوائل من قادة وجنود جيش الإسلام الأول ، وطبقوا تعاليمها ونظرياتها في ميادين القتال إعلاءً لكلمة الله ، فكانوا قوما لا يقهرون ، ومضرب الأمثال في العبقرية الحربية .

وفي هذا البحث سوف نتناول سنة الرسول صلى الله عليه وسلم في القيادة وإدارة الحرب ابتداء من قواعد اختيار القادة وأسلوب إعدادهم للقيادة إلى

« إدارة الحرب » وهي أعلى مستويات القيادة التي تتطلب فيمن يمارسها مهارة فائقة وكفاية عالية لا في قيادة العمليات الحربية فحسب ، بل في السياسة والإدارة والاقتصاد والاجتماع وغيرها مما يعد من الضرورات الحيوية للنجاح في إدارة الصراع على أعلى مستوى .

أولا : اختيار القادة :

مبدأ ضرورة القائد وحقه في الطاعة :

قرر الرسول صلى الله عليه وسلم ضرورة وجود قائد للجماعة حتى ولو كانت صغيرة جدا ، فقال عليه الصلاة والسلام : « إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا عليهم أحدهم » (رواه أبو داود) وقال : « لايحل لثلاثة بفلاة من الأرض إلا أمروا عليهم أحدهم » (رواه أحمد) .

وقد كرم الإسلام القائد خير تكريم ووضعه في أسمى منزلة فجاء حقه في الطاعة ثابتا مقررا في أكثر من آية في القرآن الكريم :

- « يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم (النساء ٥٩)
- « وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون » (آل عمران ١٣٢)
- « من يطع الرسول فقد أطاع الله » (النساء ٨٠)
- « ومن يطع اللع والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا » (النساء ٦٩)
- « ومن يعصى الله ورسله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين » (النساء ١٤)
- « اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي » (رواه البخاري)
- « من أطاعني فقد أطاع الله ، ومن عصاني فقد عصى الله ، ومن أطاع

« إدارة الحرب » وهي أعلى مستويات القيادة التي تتطلب فيمن يمارسها مهارة فائقة وكفاية عالية لا في قيادة العمليات الحربية فحسب ، بل في السياسة والإدارة والاقتصاد والاجتماع وغيرها مما يعد من الضرورات الحيوية للنجاح في إدارة الصراع على أعلى مستوى .

أولا : اختيار القادة :

مبدأ ضرورة القائد وحقه في الطاعة :

قرر الرسول صلى الله عليه وسلم ضرورة وجود قائد للجماعة حتى ولو كانت صغيرة جدا ، فقال عليه الصلاة والسلام : « إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا عليهم أحدهم » (رواه أبو داود) وقال : « لايحل لثلاثة بفلاة من الأرض إلا أمروا عليهم أحدهم » (رواه أحمد) .

وقد كرم الإسلام القائد خير تكريم ووضعه في أسمى منزلة فجاء حقه في الطاعة ثابتا مقررا في أكثر من آية في القرآن الكريم :

- « يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم (النساء ٥٩)
- « وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون » (آل عمران ١٣٢)
- « من يطع الرسول فقد أطاع الله » (النساء ٨٠)
- « ومن يطع اللع والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا » (النساء ٦٩)
- « ومن يعصى الله ورسله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين » (النساء ١٤)
- « اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي » (رواه البخاري)
- « من أطاعني فقد أطاع الله ، ومن عصاني فقد عصى الله ، ومن أطاع

تمهيـــد :

كانت هجرة المسلمين من مكة إلى المدينة نقطة انطلاق نحو قيام أول مدرسة عسكرية في تاريخ المسلمين . . وقد قامت هذه المدرسة على تعاليم القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة القولية والعملية والتقريرية في كل ما يتصل بتنظيم أمور الحرب من حيث أهدافها وقوانينها وآدابها .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قائد هذه المدرسة ومعلمها الأول وهو المثل الأعلى الذي اجتمع فيه من أوصاف المدح والثناء ما تفرق في غيره ، وهو القدوة المثلى كما يقول الله تعالى : « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة » (الأحزاب ٢١) ، وهو القائد الذي اصطفاه الله ليبلغ أعظم رسالة وجعله تحت حراسته ورعايته حتى كان أفضل قومه ، واستوفى مكارم الأخلاق كل مكرمة لم ينلها إنسان قبله ولا بعده ، حتى خاطبه الله بقوله : « وإنك لعلى خلق عظيم » (القلم ٤) وقوله : « وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما » (النساء ١١٣) ، وحتى حدَّث هو عن نفسه فقال : « أدبني ربي فأحسن تأديبي » ، فلا عجب إذن أن يظهر الرسول القائد صلى الله عليه وسلم في الأمور الحربية ما لا يتسامى إليه قادة الحروب الذين تعلموا فنونها واتخذوها صناعة من عبقرية فذة في القيادة والتخطيط وإدارة العمليات الحربية .

وفي هذه المدرسة تعلم المسلمون الأوائل من قادة وجنود جيش الإسلام الأول ، وطبقوا تعاليمها ونظرياتها في ميادين القتال إعلاءً لكلمة الله ، فكانوا قوما لا يقهرون ، ومضرب الأمثال في العبقرية الحربية .

وفي هذا البحث سوف نتناول سنة الرسول صلى الله عليه وسلم في القيادة وإدارة الحرب ابتداء من قواعد اختيار القادة وأسلوب إعدادهم للقيادة إلى

أميري فقد أطاعني ومن عصى أميري فقد عصاني . » (رواه البخاري »

لكن الطاعة التي يريدها الإسلام ليست عمياء بل هي الطاعة الواعية البصيرة ، وقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » (رواه أحمد) وقال : « إنما الطاعة في المعروف » .

معيار اختيار القائد :

وقرر الرسول صلى الله عليه وسلم أن المعيار الأمثل لاختيار القائد هو أن يجمع بين الكفاية وحب رجاله له ، فقال عليه الصلاة والسلام :

« أيما رجل استعمل رجلا على عشرة أنفس ، علم أن في العشرة أفضل ممن استعمل ، فقد غش الله ورسوله وغش جماعة المسلمين ، وأيما رجل أمَّ قوما وهم له كارهون ، لم تَجُزْ صلاته أذنيه » .

فهذا الحديث الشريف يضم الشرطين الرئيسيين لاختيار القائد وهما الكفاءة والحب :

(١) « الكفاية » في القسم الأول من الحديث ، وهي أساس التفضيل عند الاختيار إلى درجة أن الانحراف عنها باختيار قائد للجماعة مع العلم بأن فيها من هو أفضل منه يُعد غشا لله ولرسوله ولجماعة المسلمين .

(٢) « والحب » في القسم الثاني من الحديث الذي تبلغ أهميته كشرط في اختيار القائد إلى حد عدم قبول الصلاة من الإمام الذي يكرهه الناس .

كذلك قال عليه الصلاة والسلام : « خيار أئمتكم الذين تحبونهم وتُصَلُّون عليهم ويصلون عليكم (أي تدعون لهم ويدعون لكم) وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم ، وتلعنونهم ويلعنونكم » . . وقال أيضا : « من استعمل رجلا من عصابة وفيهم من هو أرضى لله منه ، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين » (رواه الحاكم) .

أمانة الاختيار :

ويقرر الرسول صلى الله عليه وسلم أن أمانة الإختيار هي الطريق لوضع الرجل المناسب في المكان المناسب ، وأنها تعني استقامة الضمير ونقاء النفس وشجاعة الرأي وخلوص القلب من الجبن والرياء والنفاق على أساس من العلم والمعرفة ، وتعني تنزه الإنسان عن اختيار غير الإكفاء لمنفعة أو لهوى .

عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال : « قلت يارسول الله ، ألا تستعملني ؟ (أي توليني عملا عاما) قال : فضرب بيده على منكبي ، ثم قال : يا أبا ذر ، إنك ضعيف وإنها أمانة ، وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها ، وأدى الذي عليه فيها » (رواه مسلم) .

وعنه أيضاً أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له : « يا أبا ذر ، إني أراك ضعيفا ، وإني أحب لك ما أحب لنفسي ، لا تُؤَمَّرن على اثنين ، ولا تَلِيَنَّ مال يتيم » (رواه مسلم ـ والمقصود أنه عليه الصلاة والسلام يراه ضعيفاً لا يقوى على ممارسة القيادة ، وعلى إدارة مال اليتيم ، وقد فسر ضعف أبي ذر رضي الله عنه بضعفه عن القيام بوظائف الولايات ، والعجز عن تنفيذ أمورها ، ورعاية حقوقها . وذلك لأن الغالب في أبي ذر كان الزهد واحتقار الدنيا والإعراض عنها) .

وعن يزيد بن أبي سفيان قال : قال لي أبو بكر الصديق حين بعثني إلى الشام : يا يزيد ، إن لك قرابة عسيت أن تؤثرهم بالإمارة ، وذلك أكثر ما أخاف عليك بعد ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من ولي من أمر المسلمين شيئا فأمر عليهم أحدا محاباة ، فعليه لعنة الله ، لا يقبل منه صرفا ولا عدلا حتى يدخله جهنم » (رواه الحاكم ـ ومعنى صرفا ولا عدلا أي ر يقبل منه الله فرضا ولا نفلا) .

ومن أروع صور التجرد من الهوى وعدم المحاباة حرص النبي صلى الله عليه وسلم أن يواجه آلُ بيته قبل غيرهم مكاره الحرب ، وأن يقاسموا المسلمين في شدائدها ومصاعبها وبخاصة حين نادى المشركون : يا محمد ، أخرج لنا الأكفاء من قومنا ، فقال عليه الصلاة والسلام : « يا بني هاشم قوموا قاتلوا بحقكم الذي بعث الله به نبيكم إذ جاءوا بباطلهم ليطفئوا نور الله » ، فقام حمزة بن عبد المطلب وعلي بن أبي طالب وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف (١) .

كذلك عين عليه الصلاة والسلام بلالاً رضي الله عنه واليا على المدينة ، وفيها من فيها من الأنصار والمهاجرين ، وولى أسامة بن زيد قيادة جيش كان فيه أبو بكر وعمر وغيرهما من كبار الصحابة ، وبعث عبادة بن الصامت سفيراً للمسلمين إلى المقوقس ، وكان عبادة أسود اللون حتى طلب المقوقس إبعاده عنه إلا أن أعضاء وفد المسلمين قالوا له : إننا لا نستطيع ذلك ؛ لأنه رئيسنا وأفضلنا عقلا وأسددنا رأيا .

ثم إن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يُقصر أمانة الاختيار على المسئول عن تعيين القادة بل يضم إليه كل من يستشار في أمر الاختيار ، فيقول عليه الصلاة والسلام : « من شهد على مسلم شهادة ليس لها بأهل ، فليتبوأ مقعده من النار » (رواه أحمد » .

إن شأن الذي لا يختار بأمانة ، وشأن من يستشار ولا يقول رأيه بصدق وإخلاص ، واختيار من لا يصلح ، شأن من يشهد شهادة الزور ، والشهادة الكاذبة من مظالم اللسان التي يضيع بها الحق ، وتختفي معالم العدل ، والله تعالى يحذر من قول الزور ويقرنه بعبادة الأوثان فيقول : « فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور » . (الحج ٣٠)

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية جـ ٢ ص ٦٢٥

وشـأن من « يتجنب إبداء الرأي » في اختيار الأصلح ، شأن من يكتم الشهادة والله تعالى يحذر من كتمان الشهادة فيقول : « ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه » (البقرة ٢٨٣) وعن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من كتم شهادة إذا دعي إليها كان كمن شهد الزور » ، وعن أبي ذر رضي الله عنه قال : « أوصاني خليلي صلى الله عليه وسلم بخصال من الخير : أوصاني ألا أخاف في الله لومة لائم ، وأوصاني أن أقول الحق وأن وإن كان مراً » .

فأمانة الاختيار تتطلب الموضوعية ، والتجرد من كل هوى إلا من جلال الحق والصدق والعدل وهذا ما يوجه إليه قوله تعالىّ : « وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا » (الأنعام ١٥٢) وقوله : « يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى » . (المائدة ٨)

ثانيا : مسـئولية بنـاء القـادة :

القيادة أمانة ورسالة :

ومن المباديء التي تستخلص من سنة الرسول صلى الله عليه وسلم في القيادة وإعداد القادة أن القيادة أمانة ورسالة ، وأن إعداد الرجال ليكونوا قادة من أسمى مهام القيادة ، وأن قيمة أية قيادة تقاس بمقدار ما صنعت وقدمت لأمتها من رجال صالحين لتولي القيادة .

فيقـرر عليه الصـلاة والسـلام أن القائد الذي يريده الإسلام هو القائد المعلم الذي يدرك مسئوليته نحو رجاله فيجعل على رأس اهتماماته إعدادهم

للقيادة ، وتعهدهم بالتدريب والتوجيه ، ومن ذلك أن يفوض إليهم بعض الصلاحيات ، ويعهد إليهم ببعض المهام ، ويسند إليهم القيادة تحت رعايته وإشرافه .

أما القائد الذي لا يرضى عنه الإسلام فهو القائد السلبي الذي لا تصل به قدراته أو قد لا يصل إيمانه وإدراكه لمسئوليته إلى حد السعي إلى إعداد غيره للقيادة ، فنراه لا يحفل بأكثر من تصريف الأمور ، ويترك معاونيه ومرءوسيه لعوامل الصدفة في التعلم ، ومن هذا النمط من القيادة من يركز كل الأمور في يده ، ويحسب أن من صالحه أن يقال عنه : إن الأمور تختل إذا غاب عن قيادته ، وقد ينطوي هذا السلوك على سوء النية والحقد وكراهية النجاح لغيره فيتضاعف ضرره .

الأسوة الحسنة :

فالقائد المسلم صاحب مدرسة ورسالة ، ويدرك تمام الإدراك أن قيامه ببناء القادة من رجاله من أسمى واجباته ، وأمانة في عنقه ، فنراه يقبل على أداء الواجب وعلى الوفاء بالأمانة بكل حماسة وإخلاص وحيوية دافقة ، وذلك بعض ما ينطوي عليه قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » . (رواه الخمسة)

ولقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم هو المعلم الذي تنزل عليه الوحي برسالة الإسلام ليبلغها للناس ، وصاحب المدرسة التي تخرج منها قادة أمم ، وعباقرة حروب ، ورجال إصلاح ، وعلماء وفلاسفة ، ورواد حضارة حملوا مشاعل الحرية والنور والعلم للإنسانية جمعاء .

وقد بلغ عدد قادة الفتح الإسلامي مائتين وستة وخمسين قائدا ، منهم مائتان وستة عشر قائدا من صحابة الرسول القائد صلى الله عليه وسلم وأربعون

من التابعين بإحسان رضوان الله عليهم أجمعين [1] ، وهؤلاء هم الذين حملوا رايات المسلمين شرقاً وغرباً ، فامتدت فتوحاتهم في أقل من مائة عام من حدود الصين شرقا إلى شاطيء الأطلسي غربا . .

ثالثا : منهج إعداد القادة :

ويقوم منهج إعداد القادة الذي قرره الرسول القائد صلى الله عليه وسلم على الأسس التالية :

١ ـ اكتساب القائد للقدرات القتالية :

يقرر الرسول عليه الصلاة والسلام أن بناء « المقاتل » أساس لبناء « القائد » ، فلا يقود المقاتلين في المعركة إلا مقاتل ، من أجل ذلك حرص عليه الصلاة والسلام على تدريب أصحابه على القتال بالأسلحة المعروفة في عصره كالرماية بالسهام والطعن بالرمح والحربة والضرب بالسيف ، وعلى الفروسية والقتال على الخيل ، عن عقبة بن عمر رضي الله عنه قال : « صعد رسول الله صلى الله عليه وسلم المنبر يوما ، فقرأ قوله تعالى « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » ثم قال : ألا إن القوة الرمي ، إن القوة الرمي ، إن القوة الرمي » (رواه مسلم) .

وخرج صلى الله عليه وسلم مع نفر من بني أسلم ينتضلون بالسوق (أي يتسابقون في الرمي) فقال : ارموا بني إسماعيل ، فإن أباكم كان راميا ، ارموا وأنا مع بني فلان ، فأمسك أحد الفريقين ، فقال ما لكم لا ترمون ؟ فقالوا كيف نرمي وأنت معهم ؟ فقال ارموا وأنا معكم كلكم » (رواه البخاري وأحمد وابن حبان والحاكم عن أبي هريرة) . وقال عليه الصلاة والسلام : « من مشى بين

(١) اللواء الركن محمود شيت خطاب : بين العقيدة والقيادة ص ١١٩

الغرضين كان له بكل خطوة حسنة » (رواه الطبراني ـ والغرضان : تثنية غرض وهو ما يحاول الرامي اصابته) .

وبلغ من تشجيعه صلى الله عليه وسلم على التدريب على الأسلحة أنه سمح باتخاذ المسجد ميدانا للتدريب ، إذ يروى أن بعض الأحباش كانوا يلعبون بحرابهم عند النبي عليه الصلاة والسلام في المسجد فدخل عمر رضي الله عنه فأنكر عليهم لعبهم بالحراب في المسجد ، فقال النبي : « دعهم يا عمر »(١) ، وقد قال عليه الصلاة والسلام ذلك لأن المسجد موضوع لأمن جماعة المسلمين ، فأي عمل من الأعمال يجمع بين منفعة الدين وأهله ، فهو جائز فيه ، مباح بين جدرانه .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة » (متفق عليه) وعنه أيضا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « جعل للفرس سهمين ولصاحبه سهما » (رواه البخاري) وذلك لترغيب المسلمين في اقتناء الخيل والعناية بها وإعدادها للحرب ، كما قال عليه الصلاة والسلام في ذلك : « من احتبس فرسا في سبيل الله إيماناً واحتساباً في سبيل الله وتصديقاً بوعده ؛ فإن شبعه وريه وروثه وبوله في ميزانه يوم القيامة» (أخرجه البخاري) .

وقد ضرب الرسول القائد صلى الله عليه وسلم بنفسه المثل في مجال التدريب على فنون القتال ، فكان يشارك رجاله في التدريب وكان يصرع الرجل القوي ويركب الفرس عارية فيروضها على السير ، وكان يداعب من يحب بالمسابقة في العدو .

(١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : بينما الحبشة يلعبون عند النبي صلى الله عليه وسلم بحرابهم دخل عمر فأهوى إلى الحصى فحصبهم بها ، فقال : « دعهم يا عمر » (رواه الشيخان)

٢ ـ التدريب على اتخاذ القرارات :

وعني الرسول صلى الله عليه وسلم بتدريب رجاله على اتخاذ القرارات ، لأن الكفـاءة الحقيقية للقائد تتجلى في القدرة على اتخاذ القرارات السليمة والحـاسمـة في المـواقف والـظروف المختلفة . وقد قدم لأصحابه في هذا المجال أمثلة عملية كثيرة ، فمن قراراته صلى الله عليه وسلم في المواقف الحرجة نذكر ما يلي :-

(١) قراره بقبـول المعركة في بدر ، فلقد خرج المسلمون أصلا للقاء قافلة قريش في طريق عودتها بالتجارة من الشام ، لكن الموقف تغير إذ أفلتت القافلة وخرجت قريش بكل قوتها لقتال المسلمين بقوة متفوقة (بنسبة ٣ إلى ١) ، فكـان أمام الرسول صلى الله عليه وسلم أن يقدر الموقف ليصـل إلى قرار : هل يقبل الدخول في معركة مع قريش المتفوقة في العـدد والعدة أم ينسحب إلى المدينة ؟ فرأى عليه الصلاة والسلام أن المسلمين لو انسحبـوا فسوف تعيرهم قريش بالتخاذل ، وسوف يطمع فيهم يهود المدينة ، أضف إلى هذا ما لهذا الانسحاب من أثر سيء على الدعوة الإسلامية ، لكنه لم يشأ أن يبت في الأمر حتى يستشير أصحابه في ذلـك المـوقف الخـطير الذي يواجهون فيه تحدي القتال لأول مرة بصورة حاسمة ، فوجد منهم استعداداً للقتال رغم تفوق العدو ، فاتخذ قراره بدخول المعركة وكان النصر للمسلمين بفضل إيمانهم وصدق عزيمتهم .

(٢) قراره بالخـروج إلى حمـراء الأسـد في اليوم التـالي مباشرة لغزوة أحد لمطاردة قريش ، فإنه بعدما كان في أحد ، جعل عليه الصلاة والسلام يفكر فيما خلفته الهزيمة من آثار على هيبة المسلمين :

- فأهل يثرب من اليهود والمنافقين والمشركين يظهرون أشد السرور لما كان

من هزيمته وهزيمة أصحابه .

- وسلطان المسلمين بالمدينة الذي كان قد استقر فلم يبق لأحد أن ينازع فيه ، يوشك أن يضطرب ويتزعزع .
- وكبير المنافقين عبد الله بن أبي سلول قد خرج على الجماعة وعاد من أحد ولم يشترك في القتال بدعوى أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يسمع رأيه أو أنه غضب على مواليه من اليهود .
- ولو تُرك أمر نتيجة المعركة على النحو الذي انتهت إليه ، لبقيت « الهزيمة » الكلمة الأخيرة بين المسلمين وقريش ، ولهان أمرهم وتضعضع سلطانهم بالمدينة ، ولكانوا عرضة لاستخفاف قريش بهم والاستهزاء منهم في أنحاء شبه الجزيرة .

وهكذا لابد من ضربة جزائية وعاجلة تخفف من وقع هزيمة أُحد وترد إلى المسلمين قوتهم المعنوية ، وتدخل إلى روح اليهود والمنافقين الرهبة ، وتعيد إلى الرسول وأصحابه سلطانهم بيثرب قويا كما كان ، فلما كان الغد من يوم أحد(١) أمر الرسول صلى الله عليه وسلم المسلمين بالخروج لمطاردة العدو على ألا يخرج إلا من حضر الغزوة بالأمس ، فخرجوا حتى بلغوا حمراء الأسد وظلوا هناك يوقدون النار طيلة الليل ثلاثة أيام متتابعة ليدلوا قريشا على أنهم على عزمهم وأنهم منتظرون رجعتهم التي هددوا المسلمين بها ، فكان من أثر ذلك أن فترت همة قريش وعادت أدراجها إلى مكة ورجع المسلمون إلى المدينة وقد استردوا كثيرا من هيبتهم .

(٣) قراره في غزوة أحد الذي استهدف به تكذيب شائعة قتله التي كان لها أثر شديد في نفوس المسلمين ، فخارت قواهم ، وألقى كثير منهم ما معهم

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية حـ ٣ ص ١٠١

من السلاح ، وذلك بأن صعد إلى التل ليطمئن أصحابه ويرد إليهم قواهم المعنـوية وكان عليه الصلاة والسلام ينادي ويدعو الناس إليه ويقول : « أنا رسول الله »[1]

في هذا الموقف الخطير الذي حدث في أشد مواقف المعركة حرجا لم يبعث الـرسول بين المسلمين من ينادي بأنه لم يقتل ، وإنما واجه الشائعة « بأقوى » وسائل تكذيبها وهي « الحقيقة الدامغة » ، فقرر أن يظهر بنفسه لكي يراه المسلمون حيا ، فكان في ذلك القضاء التام على شائعـة مقتله ، بل إن هذا القـرار كان له -بالإضافة إلى القضاء على الشائعة- دوره الإيجابي الفعال في تجميع القوى المبعثرة وفي رد الثقة في النصر إلى المسلمين .

(٤) ومن القرارات الحاسمة في المواقف المعنوية أو الاجتماعية أو السياسية الدقيقة ، قراره صلى الله عليه وسلم الذي اتخذه وهو يدخل المدينة في اليوم الأول للهجرة ، فلقد وجد أن القبائل وكل البيوت تريد أن تحظى بشرف نزول رسول الله عندها ، فحسم عليه الصلاة والسلام الموقف بأن قال : « خلوا سبيل النـاقة فإنها مأمورة »[2] حتى إذا توقفت الناقة من تلقاء نفسها ، لم يكن هناك في نفس أحد شيء .

وهكـذا تعلم المسلمـون أن المقـدرة على عمـل تقرير سريع للموقف والوصول إلى قرار سليم وحاسم من القدرات والمهارات التي ينبغي أن يتملكها القائد المسلم ، لأن القائد المتردد لا يتوقف ضرره عند حد الفشل في مواجهة الموقف بالقرار السليم والحاسم في الوقت المناسب وقبل أن يفوت الأوان ، بل يمتد إلى مرءوسيه فيشيع فيهم التردد وعدم الحسم وفقد الثقة .

---

(١) الطبري : حـ ٢ ص ٥٢٠ ـ ٥٢١

(٢) ابن هشام : السيرة النبوية حـ ٢ ص ٤٩٥

وفي العلم العسكري المعاصر ما يقترب مما قرره الرسول صلى الله عليه وسلم في عملية إصدار القرارت ، فنرى مثلا المشير مونتجمري يربط القيادة في المواقف الفاصلة بالشجاعة والإقدام فيقول : « هناك قدرات وصفات كثيرة تجعل من الفرد قائدا ، ولكن أهم هذه القدرات وأكثرها حيوية القدرة على اتخاذ قرارات صحيحة مع الشجاعة في تنفيذ القرارت ، ولا بد أن يتحلى القائد بصفة الإقدام في إنجاز الأمور مع الحزم والإصرار ، وهذه الصفات هي التي تمكنه من الصمود عندما تتأرجح الأمور أو الأحداث بين كفتي ميزان ، أي في اللحظات الحرجة والمواقف الفاصلة التي تصبح فيها نتيجة الحرب في الميزان » ، ويصور مونتجمري المواقف الحرجة في المعركة وكيف يلفها الغموض وعدم اليقين ، إلى درجة تؤدي إلى اهتزاز ثقة القائد نفسه في النتائج التي سوف تسفر عنها الأحداث ، ويرى أن القائد الكفء حقا هو الذي يستطيع -رغم كل ذلك- إشاعة الثقة في مرءوسيه ثم يقول : « فالمعرقة في الواقع صراع بين إرادتين : إرادته هو وإرادة قائد العدو ، فإذا بدأت شجاعته تخونه في اللحظة التي تتأرجح فيها نتيجة الحرب في الميزان ، فالمحتمل أن ينتصر عليه خصمه»[1] .

٣ ـ المشاركة في التخطيط للمعارك :

ومما حرص عليه الرسول القائد صلى الله عليه وسلم أن يشرك أصحابه في التخطيط الحربي بالتفكير والمناقشة وإبداء الرأي ، وهو في ذلك يطبق مبدأ الشورى الذي أمره الله تعالى به في قوله : « فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستنفرهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين » (آل عمران

---

(١) فيكونت مونتجمري : الحرب عبر التاريخ حـ ١ ص ٢٦

١٥٩) ، فكان عليه الصلاة والسلام شديد الحرص على مشورة أصحابه حتى قال عنه أبي هريرة رضي الله عنه : « ما رأيت أحدا قط كان أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله صلى الله عليه وسلم »

والأمثلة العملية على ذلك كثيرة نذكر منها ما يلي :

(١) في غزوة بدر استشار عليه الصلاة والسلام أصحابه في مبدأ دخول المعركة ضد قريش واستقر الرأي على قبول المعركة ، وعندما وصل جيش المسلمين إلى مكان المعركة نزل عليه الصلاة والسلام على رأي الحباب بن المنذر الذي أشار بأن ينتقل الجيش إلى مكان أفضل من الأول حيث يسيطر فيه المسلمون على مياه بدر ويحرمون قريشا منها .

(٢) وفي غزوة أحد استشار أصحابه في مبدأ البقاء في المدينة ولقاء قريش فيها أو الخروج للقائهم خارجها ، فاستقر الرأي على الخروج واستجاب صلى الله عليه وسلم وقال لأصحابه : « لكم النصر ما صبرتم » .

(٣) وقد استشار الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه في كافة غزواته ، عدا غزوة الحديبية لأنه كان يصر على نواياه السلمية التي تؤمن له الاستقرار الضروري لانتشار الإسلام ، فكان يقصد من التفاهم مع قريش أهدافا بعيدة جدا ليس من مصلحة الدعوة ولا من مصلحة المسلمين الإخبار عنها ، وقد ظهرت أهدافه فيما بعد ، فأدرك أصحابه ما انطوى عليه قرار الرسول صلى الله عليه وسلم من حكمة وسياسة وبعد نظر ، حين رأوا ما حققه الصلح من خير للدعوة .

فوائد المشاركة في التخطيط :

وتعود المشاركة في التخطيط على قادة المستقبل بعدة فوائد نذكر منها ما يلي :-

(١) التدريب على فن التفكير والتعبير عن الرأي .

(٢) التدريب على حل المشكلات « بالطريقة العلمية » التي تعد المدخل الصحيح للوصول إلى القرار السليم والخطة السليمة على أساس من تحديد الأهداف بوضوح وفحص وتحليل المعلومات والمعطيات ، واستعراض الحلول والبدائل المختلفة لحل المشكلة ، واختيار الحل أو البديل الأفضل ، وقد رأى صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم ولمسوا عنايته الفائقة بالحصول على المعلومات بكل الوسائل، من أرصاد منتشرين في أنحاء شبه الجزيرة ، إلى أعمال استطلاع لأحوال العدو بواسطة مفارز الاستطلاع وقد قام ببعضها بنفسه ، إلى استنطاق الأسرى وذلك حتى يبني قراراته وخططه على أقصى قدر من المعلومات وأحدثها ثم رأوه وهو يقدر المواقف ويقلب الأمور ويصدر القرار .

(٣) التدريب على المبادأة (أي التصرف بحرية) وعلى التصرف السليم في المواقف التي تواجههم دون الحاجة إلى الرجوع إلى القائد الأعلى ، وخاصة في المواقف المفاجئة ، أو التي لا تحتمل التأخير والانتظار ، فإن مشاركتهم للقائد في مرحلة « صنع القرار ووضع الخطة » تتيح لهم معرفة واسعة بأهدافه ونواياه ، وإحاطة وافية بجوانب الموضوع تمكنهم من اتخاذ القرار السليم في المواقف بهدي تفكيرهم وحدهم .

(٤) التدريب على قاعدة « اشتراك المنفذين في التخطيط » والاقتناع بما تحققه من نتائج طيبة في التنفيذ وتحقيق الأهداف ، فسوف يتعلم القادة أن هناك فرقا كبيرا بين أن تكتفي القيادة بإصدار القرارات التي « يتعين » على المرءوسين تنفيذها ، وبين أن تحرص على إشراك هؤلاء المرءوسين في عملية التخطيط قبل أن تصدر قرارات التنفيذ ، وسوف يدركون أن الأسلوب الثاني أفضل من الأول وأكثر نفعا :

- فهو يجعل المنفذين أكثر تفهما للأهداف التي يراد تحقيقها

- ويضمن إيجابيتهم وحماسهم في تنفيذ الخطة التي « ساهموا » في وضعها .
- ويضمن كذلك « واقعية الخطة » ؛ لأنها انبعثت من الطبيعة والواقع الميداني وهـذا بالتـالي يضمن ألا تتعثـر الخطة أثناء التنفيذ بسبب احتوائها على مهام يصعب تنفيذها .

وفي العلم العسكري وعلم الإدارة الحديثة ما يقترب من هذا المبدأ ، فقد أجمع الخبراء العسكريون وعلماء الإدارة على أن القيمة الحقيقية لأية خطة تكمن في واقعيتهـا وإمكـانية تنفيذهـا ، واتفقـوا على أن « الخـطط ذات الشـأن هي تلك التي يكـون لديهـا فرصـة أكبر في التنفيذ ، وتأسيسا على ذلك فإن مسئولية أجهزة التخطيط لا تنحصر في مجرد وضع الخطط ، وإنما يلزم أن تتأكد من أن هذه الخطط قابلة للتنفيذ بحيث تحقق الأهداف المتوخاة »[1] .

(٥) ومن الفوائد التي تحققها المشاركة في التخطيط توجيه قادة المستقبل إلى الأخـذ بنمط « التنظيم الرأسي الاستشاري » في تنظيم الجيوش[2] . وهـو النمط الذي يوفر المستشارين أو المساعدين المتخصصين الذين

---

(١) عبد الكريم درويش ـ د. ليلى تكلا : أصول الإدارة العامة ص ٢٧١

(٢) تستخدم الدول عادة في تنظيم جيوشها نمطين يسمى الأول « التنظيم الرأسي » Line Organi-zation ، ويسمى الثاني « التنظيم الرأسي الاستشاري » Line and Staff Organization

والتنظيم الرأسي تمتد فيه السلطة من القائد إلى مرءوسيه عن طريق التسلسل القيادي الـذي تصـدر من خلالـه تعليمـات القـادة وقراراتهم إلى مرءوسيهم ، وترفع إليهم تقارير المرءوسين ومطالبهم ، ويعيب هذا النمط من التنظيم خلوه من عنصر المستشارين مما يلقي على القائد وحده عبء الدراسة والبحث والتخطيط واتخاذ القرارات ، كما أنه يؤدي عادة إلى تركيز السلطة في يد شخص واحد ، فتتراكم عنده الأعمال وتزيد أعباؤه ويتعرض للوقوع في الأخـطاء ، أمـا التنـظيم الـرأسي الاستشاري فيتميز بأن قرارات القادة وخططهم تقوم -بفضل المشورة- على أسس من العلم والتخصص مما يؤدي إلى تحقيق الأهداف على نحو أفضل وبكفاءة عالية (انظر كتابنا المدخل إلى العقيدة والإستراتيجية العسكرية الإسلامية ط ٢ ص ٤١٥)

يقدمون للقائد المشورة والنصح ، وهو أفضل من النمط الآخر في التنظيم الذي يسمى « التنظيم الرأسي » الذي لا يوفر عناصر المشورة .

(٦) وتتيح المشاركة في التخطيط للقائد فرصة اكتشاف أصحاب المواهب بين رجاله ، فتمكنه بالتالي -فضلا عن استغلال هذه المواهب لصالح الجماعة وتحقيق الأهداف- من التخطيط لتنمية تلك المواهب لدى أصحابها وإعدادهم للمراكز التي هم جديرون بها في المستقبل وذلك مما يحقق مبدأ وضع الرجل المناسب في المكان المناسب على أفضل وجه .

(٧) وأخيراً وليس آخراً ؛ فإن من فوائد المشاركة في التخطيط انتشار «وعي التخطيط » في عقول رجال الجيش عامة ، واقتناعهم بتشكيل سلوكهم وفقا للإيمان بأن التخطيط أمر حيوي لتنظيم العمل ، وأسلوب أمثل لتحقيق الأهداف بأقصى قدر من الكفاية ، وأن الإسلام لا يرضى للمسلمين أن يتركوا أمورهم لعوامل الصدفة وأن يدعوها « تجري في أعنتها » .

مبادىء المشورة في التخطيط :

وقد قرر الرسول صلى الله عليه وسلم عدة مباديء لتطبيق مبدأ الشورى في التخطيط حتى يستوعبها القادة ويلتزموا بها نذكر ما يلي :-

(١) الشورى واجب ومسئولية مشتركة

- فالقائد مسئول عن تطبيق مبدأ الشورى تنفيذا لكتاب الله وسنة رسوله
- والمرءوسون مسئولون أيضا عن إبداء الرأي بأمانة وصدق وإخلاص ومن ذلك

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « المستشار مؤتمن » (رواه ابن ماجة بسنده عن أبي هريرة) ويقول أيضا : « إذا استشار أحدكم أخاه فليشر عليه » (رواه ابن ماجة بسنده عن جابر) ويقول : « من كتم شهادة إذا دعي إليها كان كمن شهد الزور » .

ولقد أمر الله تعالى رسوله بأن يشاور أصحابه ، وهو الذي يتنزل عليه الوحي ، ولم يكن ذلك إلا تعليما للمسلمين وإعلانا بأن في تحقيق مبدأ الشورى من الفضل والخير ما يؤمن معه العثار ويحفظ الأمة من الزلل .

(٢) استشارة أهل الرأي :

روى ابن مردويه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : سئل صلى الله عليه وسلم عن العزم ، فقال : « شاور أهل الرأي » ، كما روى أبو هريرة رضي الله عنه أنه قال : « استرشدوا العاقل ترشدوا ، ولا تقصوه فتندموا » .

فالقيادة الحكيمة هي التي تستفيد من خبرة العلماء والخبراء والمتخصصين وغيرهم من أهل الرأي الذين يصدر رأيهم عن دراية وسعة في المعرفة وعمق في التخصص والتجربة ، وفي هذا المجال لا ينظر الإسلام إلى رتبة صاحب الرأي أو درجته ، وإنما ينظر إلى الرأي ذاته ، فإن كان صالحا أخذ به ، فلقد نزل الرسول صلى الله عليه وسلم على مشورة الحباب بن المنذر في بدر ، فنقل الجيش حيث أشار ، وأخذ برأي سلمان الفارسي في غزوة الخندق ، فحفر خندقاً حول المدينة كما أشار ، وينطوي قوله صلى الله عليه وسلم للحباب : « أشرت بالرأي »[1] على مغزى رفيع ، فوق النزول على الرأي ، هو الإشارة بالرأي الصواب وتكريم صاحبه وحفز همة الأفراد جميعا نحو التفكير وإبداء الرأي والمشورة . وبذلك يؤكد عليه الصلاة والسلام أن

(١) ابن هشام : السيرة النبوية حـ ٢ ص ٦٢٠

الأخـذ بالمشـورة الصالحة آية من آيات حسن القيادة ،التي تستفيد من خبرة الخبير ، كما تستفيد من شجاعة الشجاع ، وهي التي تجند كل ما بين يديها من قوى الآراء والقلوب والأجسام .

(٣) وجوب تنفيذ الخطة بعد المشورة :

في غزوة أحد شاور الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه فاستقر الرأي على لقاء قريش خارج المدينة وأخذ المسلمون في الاستعداد للخروج ، لكن القـوم الـذين دَعَـوْا إلى الخروج شعروا أنهم استكرهوا الرسول عليه الصلاة والسلام على اتخاذ القرار بالخروج ، فذهبوا إلى بيته وأظهروا الرغبة في النزول على رأيه بالبقـاء في المـدينـة ، إلا أن النبي صلى الله عليه وسلم حسم الموقف ، وقطع هذا الاضطراب والتردد ، فقال : « ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته (درعه) أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه » وبذلك يتعلم القادة أن تنفيذ الخطة بعد المشورة واجب ، وأنه متى استقر الرأي على أمرٍ ما ، فلا محل للتردد أو المناقشة من جديد ، لأن من شأن ذلك تعطيل التنفيذ والفشل في تحقيق الأهداف .

ثم إن تنفيذ ما استقـر عليه الرأي ينطوى على معان ذات مغزى ، ففيه تكريم لأصحاب الرأي ، وحفز لكل فرد لأن يتقدم لإبداء رأيه مما يعين على أن تأتي الخطط على أفضل وجه ممكن ، أما عدم تنفيذ ما استقر عليه الرأي فله آثار ضارة ، ففضلاً عن أنه يصيب بالإحباط أصحاب الرأي الذين تقدموا بالرأي الصالح الذي حظي بموافقة الجماعة ، فإنه يصيب الأفراد جميعا بروح السلبية ويدمر حوافزهم النفسية نحو إبداء الرأي . وهذا التوجيه هو بعض ما يفهم من قوله تعالى : « فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين » (آل عمران ١٥٩) ، وروى الإمام أحمد بسنده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبي بكر وعمر : « لو اجتمعتما في مشورة لما خالفتكما » .

٤ ـ قيادة العمليات القتالية المحدودة

إن تولي القيادة الفعلية هو تتويج للجهود التي تستهدف إعداد القادة ، وهو انتقال طبيعي من المرحلة النظرية إلى مرحلة التطبيق العملي ، من أجل ذلك حرص الرسول القائد المعلم صلى الله عليه وسلم أن يكون ذلك تحت إشرافه وتـوجيهه ، فكان يعهد إلى أصحابه بتولي القيادة لأشكال متعددة من أعمال القتال المحدودة ، وهي ما يطلق عليها لفظ سرايا مثل (مفارز) (دوريات) الاستطلاع و (مفارز) القتال والإغارات[1] .

ومن خصائص هذه الأعمال أنها مَحدودة الأهداف والقوة ، إذ تتراوح القوة التي تتـألف منهـا من بضعة أفراد إلى بضع مئات ، وهي تفيد القادة الذين يتـولـونهـا من جوانب كثيرة ، فمن خلالها يدرسون طبيعة الأرض والطرق ، ويستطلعون أحوال العدو ، ويدخلون معه في تجربة القتال الفعلي لسبر أغواره واختبار قوته وقدراته القتالية ، وكل ذلك يمنحهم قدرا كبيرا من الثقة في قدرتهم على القيادة ، يؤهلهم لتولي القيادة في مهام قتالية أكبر من تلك المهام في الأهداف والقوة ، ومن أمثلة تلك المهام المحدودة :

(١) من مفـارز الاستطلاع : سرية عبد الله بن جحش وقوتها اثنا عشر رجلاً في رجب من السنة الثانية للهجرة .

(٢) من مفارز القتال : سرية حمزة وقوامها ثلاثون رجلا بقيادة حمزة بن عبد المطلب في رمضان من السنة الأولى للهجرة .

(٣) من الإغارات : سرية أبي سلمة وقوامها مائة وخمسون رجلا بقيادة أبي سلمة بن عبد الأسد في ذي الحجة من السنة الثالثة من الهجرة .

---

(١) راجع تفاصيل هذه العمليات في الملاحق أ ، ب ، جـ ، هـ ، من كتاب الرسول القائد اللواء الركن محمود شيت خطاب ص ٨٢ ، ١٥٤ ، ٢١٠ ، ٣١٤

٥ ـ قيادة وحدات الجيش تحت القيادة العليا للرسول

وهي صورة أخرى من صور إعداد القادة ، إذ كان الرسول صلى الله عليه وسلم يعين أصحابه لقيادة الوحدات التي يتألف منها الجيش الذي يتولى قيادته ، فمثلا في غزوة بدر كان الجيش يتألف من كتيبتين : كتيبة المهاجرين ويقودها علي بن أبي طالب ، وكتيبة الأنصار ويقودها سعد بن معاذ [١] ، وفي غزوة الفتح كان الجيش يتألف من أربعة أرتال يقودها أربعة من القادة هم : الزبير بن العوام ، وخالد بن الوليد ، وسعد بن عبادة ، وأبو عبيدة بن الجراح [٢] .

هذا الأسلوب يفيد القادة من عدة نواحي نذكر منها ما يلي :-

(١) مباشرة القيادة الفعلية تحت إشراف القائد المعلم والإفادة من ملاحظاته وتوجيهاته .

(٢) إتاحة الفرصة العملية لملاحظة أسلوب القائد المعلم في القيادة الحربية من حيث التخطيط للمعركة وإدارتها والتصرف في مواقفها ، وهي فرصة طيبة للتعلم على الطبيعة مع اكتساب الخبرة القتالية في الوقت نفسه .

والجدير بالملاحظة أن هذه « الدورة التدريبية العملية » لإعداد القادة امتدت بداية الصراع مع الأعداء حتى نهايته في عصر النبوة أي أكثر من سبع سنوات وهو ما يدل عليه التوزيع الزمني والكمي للغزوات التي قادها الرسول صلى الله عليه وسلم بنفسه : [٣]

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية : حـ ٢ ص ٦١٣

(٢) المرجع السابق : حـ ٤ ص ٤٠٦ ـ ٤٠٧

(٣) اللواء محمد جمال الدين محفوظ : « المدخل إلى العقيدة والاستراتيجية العسكرية الاسلامية » ط ٢ ص ٣٨٨

- ففي السنة الثانية للهجرة : قاد ثماني غزوات (٨)
- وفي السنة الثالثة : قاد أربع غزوات (٤)
- وفي السنة الرابعة : قاد ثلاث غزوات (٣)
- وفي السنة الخامسة : قاد أربع غزوات (٤)
- وفي السنة السادسة للهجرة : قاد ثلاث غزوات (٣)
- وفي السنة السابعة : قاد غزوتين اثنتين (٢)
- وفي السنة الثامنة : قاد ثلاث غزوات (٣)
- وفي السنة التاسعة : قاد غزوة واحدة (١)

من هذا التوزيع يتضح أن الرسول صلى الله عليه وسلم باشر القيادة بنفسه طوال فترة الصراع ، بل وفي كل سنة من سنواتها بلا استثناء ، مما جعل عملية تدريب القادة تستمر بلا انقطاع ، ثم نلاحظ أنه عليه الصلاة والسلام قاد في العام الأول للصراع (سنة ٢هـ) ثماني غزوات ، وهذا الرقم أكبر بكثير من أي عدد من الغزوات قاده في سنوات الصراع الأخرى ، وهذا التركيز له دلالة لا تخفى على الفطن الخبير بفنون القيادة الحربية ، إذ يتيح للقائد المعلم أوسع الفرص لتدريب رجاله على القيادة وللقادة المرءوسين أوسع الفرص للتعلم والتدريب في زمن قصير . (انظر لوحة التوزيع الكمي والزمني للغزوات) أضف إلى ذلك أن الغزوات التي بلغ عددها ثماني وعشرين غزوة احتوت على شتى صور وأشكال العمليات القتالية مما أكسب القادة خبرة عملية فيها تحت إشراف القائد المعلم وتوجيهه ، ويتضح ذلك من البيان التالي :

- مفارز القتال والإغارات : مثل غزوة الأبواء ـ غزوة بواط ـ غزوة العشيرة ـ غزوة بدر الأولى ـ غزوة بني سليم .
- المعارك الدفاعية : مثل غزوة بدر ـ غزوة أحد ـ غزوة الخندق .
- المعارك الهجومية : مثل غزوة فتح مكة ـ غزوة حنين ـ غزوة تبوك .

التوزيع الكمي والزمني للغزوات

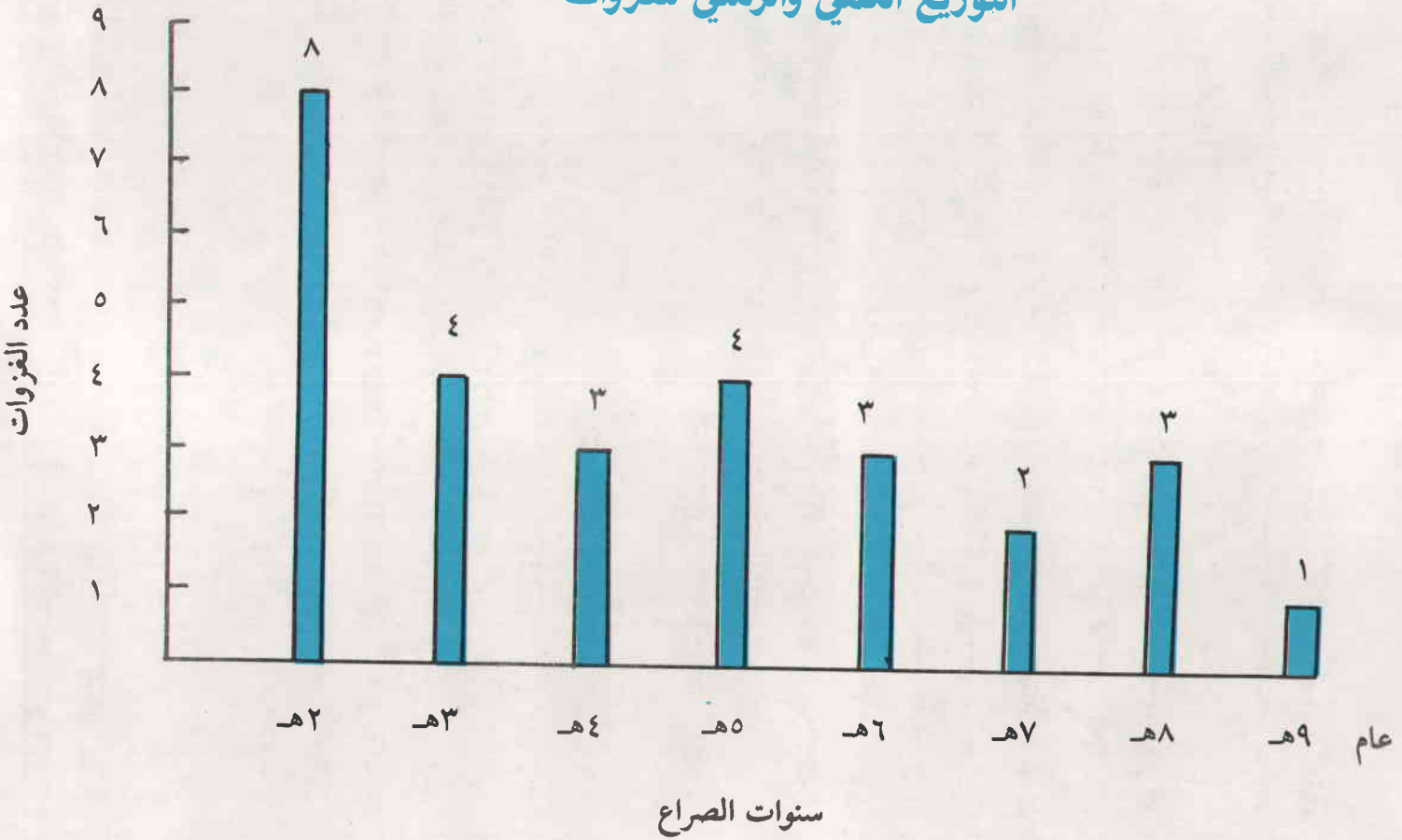

- عمليات الحصار والقتال في المناطق الحصينة : مثل غزوة بني قريظة - حصار الطائف - غزوة خيبر .
- عمليات المطاردة : مثل غزوة حمراء الأسد .

٦ - تولي مركز القائد الثاني في المعركة :

ومن صور التدريب على القيادة أن يعين القائد في المركز الثاني أو الثالث للمعركة ليتولى القيادة ، إذا غاب القائد الأصلي ، أو أصيب ، أو استشهد ، ومن ذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم عين عمير بن هشام قائدا ثانيا مع علي بن أبي طالب في قيادة كتيبة المهاجرين وحمل رايتها في غزوة بدر ، وعين جعفر بن أبي طالب قائدا ثانيا ، ويليه عبد الله بن رواحة مع زيد بن حارثة الكلبي قائد الجيشين في غزوة مؤته .

٧ - تولي القيادة المستقلة للعمليات :

وتلك أرقى صور إعداد القادة ، حيث يباشر القائد مسئولية القيادة كاملة لإحدى المعارك الهامة ، وقد أتاح القائد صلى الله عليه وسلم تللك الفرصة لأصحابه في غزوة مؤتة حين عين زيد بن حارثة الكلبي لقيادة جيش المسلمين الذي كان يتألف من ثلاثة آلاف مقاتل ، وكان موقع المعركة يبعد عن المدينة أكثر من خمسمائة كيلو متر (على حدود الشام) الأمر الذي كان يترك لزيد حرية التصرف كاملة في المعركة ، لبعده عن مركز القيادة العليا في المدينة .

ولعل السر في اختيار زيد لتولي القيادة المستقلة في تلك العملية الكبيرة هو أنه -فضلا عن ملازمته للرسول القائد صلى الله عليه وسلم منذ غزوة بدر- صاحب أكبر رصيد في قيادة السرايا ، فقد بلغ عدد أعمال القتال التي تولى قيادتها أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم إلى ما قبل غزوة مؤتة في جمادى الأولى سنة ثمان للهجرة ثلاثين عملية ، قاد زيد بن حارثة خمسا منها بينما لم

يحظ أحد ممن قادوا العمليات الباقية بأكثر من عملية واحدة ، فيما عدا غالب بن عبـد الله الليثي ، الذي قاد ثلاث عمليات ، وبشير بن سعد الأنصاري الذي قاد عمليتين . وكانت تلك العمليات الخمسة من نوع الإغارات ومفارز القتال التي تنوعت في أهدافها ، وحجمها وبدأت أولاها خلال الفترة فيما بين بدر وأحد ، وكان قوامها مائة رجل ، وجرت بقية العمليات في العام السادس للهجرة ، وكانت الأخيرة منها (الخامسة) تتألف من خمسمائة رجل [1] . وقد أثبت زيد عمليا في تلك العمليات الخمس كفاءة عالية في القيادة إذ أنها جميعا بلا استثناء حققت أهدافها التي رصدت لها .

٨ ـ رعاية القادة الموهوبين :

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم حريصا على رعاية من يثبتون كفاءتهم ومن تظهر مواهبهم في القيادة الحربية بحيث تبشر بمستقبل باهر لهم ، ومن أمثلة هؤلاء خالد بن الوليد ، فقد برزت تلك الرعاية بأجلى معانيها حين أشاد عليه الصلاة والسلام بخالد ، فسماه « سيف الله » وهو عائد على رأس جيش المسلمين منسحبـا من مؤتة ، وكان المسلمون في المدينة يتلقون العائدين بالنكير والتشهير ، ويحثـون في وجـوههم التـراب ، ويصيحـون بهم أينمـا وجدوهم : يا فرار !! يا فرار !! ، فررتم من سبيل الله[2] .

لقد قدم الرسول القائد المعلم صلى الله عليه وسلم بذلك صورة رفيعة لتصرف القائد الأعلى الذي يحرص على ألا يدع مثل هذا الموقف يقضي على المستقبـل العسكري لقائد لديه من الملكات والقدرات والمواهب ما يجعله أهلا لتولي القيادة الحربية على أعلى المستويات .

---

(١) اللواء محمد جمال الدين محفوظ « المدخل إلى العقيدة الاستراتيجية العسكرية الإسلامية » ط ٢ ص ٣٩٦ مسلسل ٦ + ص ٤٠٠ مسلسل ٨ + ص ٤٠٢ مسلسل ٩ ، ١٠ ، ١٣

(٢) االطبري : تاريخ الرسل والملوك حـ ٣ ص ٤١ ـ ٤٢ + ابن الأثير : الكامل في التاريخ حـ ٢ ص ١٦٠

فالرسول عليه الصلاة والسلام لم يواجه ذلك الموقف الذي ساد فيه اتجاه عام « باللوم والإدانة » بالأساليب التي يلجأ إليها البعض عادة في مثل تلك المواقف كالتزام الصمت ، أو محاولة التبرير ، أو تقديم « كبش الفداء » للمحاكمة إرضاء للشعور العام ، هذا فضلا عن أن خالد بن الوليد لم يكن معينا من قبل الرسول صلى الله عليه وسلم للقيادة في غزوة مؤتة ، فيقول قائل : إنه ينصر قائدا هو المسئول عن اختياره ، وهو من ثم المسئول عن ارتداده أو فراره ، ولكن خالدا اختير للقيادة بالإجماع[1] بعد استشهاد قادة الجيش الثلاثة الذين عينهم الرسول لتولي القيادة بالتعاقب .

وهكذا واجه الرسول صلى الله عليه وسلم الموقف بما لم يكن في حساب أحد ، وبما لا يمكن أن يصل إليه فكر أعظم القادة ، فسمى خالد بن الوليد « سيف الله » ليحافظ على المستقبل العسكري لقائد يعرف بفراسته وعرفانه العميق بخصائص النفوس أنه قائد « واعد » سوف يكون له شأن كبير لصالح الإسلام ، وقد شهد التاريخ لخالد بالعبقرية العسكرية ووضعته أعماله الرائعة في فتوحات الإسلام الرائعة في عداد القادة العظماء في التاريخ[2] .

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية حـ ٣ ص ٣٨٠

(٢) والجدير بالذكر أن قرار خالد بعد توليه القيادة في مؤتة بالانسحاب هو من وجهة نظر فن الحرب قرار سليم تماما ، وكان هو الحل الأمثل لتخليص جيش المسلمين من الفناء في معركة غير متكافئة ، فالمعروف أن الانسحاب من أصعب العمليان العسكرية وأخطرها ، إذ كيف يمنع القائد جيش الأعداء من مطاردته وهو منسحب والإجهاز عليه ؟ ، ذلك هو الاختبار الحقيقي لكفاءة القائد وعبقريته الحربية ، وهذا بالضبط ما أظهره خالد ، فقد صمد في المعركة حتى المساء ، ثم بدَّل مواقف الجيش تحت الليل ، فنقل الميمنة إلى الميسرة ، ونقل الميسرة إلى الميمنة ، وجعل المؤخرة في موضع المقدمة ، والمقدمة في موضع المؤخرة ، ورصد من خلف الجيش طائفة يثيرون الغبار ويكثرون الجلبة عند طلوع الصباح ، فلما طلع الصباح على الفريقين إذا بالأعداد من طوائف الغسانيين والروم يرون قبالتهم وجوها غير الوجوه ، وأعلاما غير الأعلام ، وإذا بالجلبة مع هذا الاختلاف في الوجوه والأعلام توهمهم أن مددا جديدا أقبل على جيش المسلمين ، وكانوا قد ذاقوا منهم أمرَّ

رابعاً : إدارة الحرب :

« إدارة الحرب » من الأعمال الكبرى التي تحقق بها القيادة أهدافها الاستراتيجية في الصراع مع أعدائها ، وتتطلب مهارة فائقة وكفاية عالية في الإدارة والسياسة والاقتصاد والاجتماع إلى جانب القيادة الحربية .

والمتأمل في سنة الرسول القائد صلى الله عليه وسلم يجد أنه - فضلا عن إحكامه القيادة الحربية في عمليات القتال تخطيطا وإشرافا وإدارة - لم يحصر تفكيره أو همه فيما يدور في ساحة المعركة بين المسلمين وأعدائهم ، بل تعداها إلى أمور قد تبدو لأول وهلة غير عسكرية ، لكن لها نتائج استراتيجية إيجابية وفعالة في تحقيق الغايات العليا لتأمين الدعوة والدفاع عنها ، وسوف نتعرض في هذا البحث إلى بعض هذه الأمور وما حققته من آثار استراتيجية .

١ ـ ميثاق المدينة وآثاره الاستراتيجية :

كان أول ما عمد إليه الرسول القائد صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة إلى المدينة تنظيم الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية لكافة سكانها من المسلمين والمشركين واليهود ، فربط المهاجرين بالأنصار أهل المدينة الأصليين ، ووحد صف الأنصار من أوس وخزرج ، وعقد معاهدة بين المسلمين من جهة ، وبين اليهود والمشركين من أهل المدينة من جهة أخرى[1] من أبرز ما قررته ما يلي :-

---

= المذاق بغير مدد ، وهم مفاجأون ، فكيف يكون حالهم وقد أتاهم المدد؟! وهكذا ، وبهذه الخطة البارعة في خداع الأعداء ، استطاع خالد أن ينجو بالجيش من المطاردة ، ويخلصه من الفناء (راجع عبقرية خالد للعقاد ص ٥٥)

(١) راجع نص الميثاق في سيرة ابن هشام حـ ٢ ص ٥٠١ ـ ٥٠٤

من الناحية الاجتماعية والاقتصاية :

- جميع المسلمين على اختلاف شعوبهم وقبائلهم أمة واحدة
- التضامن والتعاون بين الجماعات الإسلامية
- تقرير حرية الاعتقاد ، فلكلٍّ دينه الذي هو عليه
- الجار له حرمة من جاره
- سكان المدينة آمنون فيها من القتل والاغتيال والغدر .
- المجرم ينال عقابه على جرمه دون أن يحول دون تنفيذ العقاب عليه حائل .
- ليس هناك ما يفرق بين الصفوف من دين أو أغراض أخرى
- الفقير يجد معاونة من الغني في معيشته وفك ديونه وتحمل فدائه وديته .
- حرمة المدينة أي يحرم بها ما يحرم بمكة .

ومن الناحية العسكرية :

- قيادة رسول الله صلى الله عليه وسلم لكافة سكان المدينة مسلمين ومشركين ويهود ، فإليه يرجع الأمر كله ، وله أن يحكم في كل اختلاف يقع بين السكان وبذلك أصبح هو القائد العام في المدينة .
- تعاون أهل المدينة جميعا في رد كل اعتداء يقع عليها من الخارج .
- في حالة الحرب لرد العدوان عن المدينة ، تتولى كل طائفة الإنفاق على نفسها « على اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة » .

الآثار الاستراتيجية :

هذا العمل السياسي والاستراتيجي البارع كانت له الآثار الاستراتيجية التالية :

(١) نشوء عنصر الدولة وعنصر السلطة ممثلا في شخص الرسول صلى الله عليه وسلم باعتباره الرئيس الأعلى لجماعة المسلمين التي اتخذت المدينة مقرا لها وبتنظيم أركان الدولة اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا وعسكريا .

(٢) أصبحت المدينة « قاعدة وطيدة » للإسلام تقوم على جبهة داخلية موحدة ، وتنطلق منها الجيوش للدفاع عن المسلمين وتأمين الدعوة ، وقد سجل التاريخ صلابة هذه القاعدة ، وقدرتها الفائقة على الصمود في مواجهة الأخطار :

- فقد بلغ عدد العمليات العسكرية في عهد النبي صلى الله عليه وسلم قرابة السبعين عملية ما بين غزوات وسرايا في زمن قصير نسبيا سبع سنوات .
- وحاربت هذه القاعدة في أكثر من جبهة ، فقد واجهت المشركين واليهود والروم ، وتعرضت للغزو المباشر ، وتعرضت للغدر من داخلها ، بينما كان أبناؤها يحاربون العدو خارجها ، وكان التفوق في العدد والعدة في جانب الأعداء .
- وظلت قاعدة صلبة قوية حتى تحقق الهدف الاستراتيجي وهو تأمين الدعوة حتى تمت كلمة ربك في شبه الجزيرة العربية ، وأمن الرسول صلى الله عليه وسلم كل عادية عليها ، وأقبل سائر أهلها وفودا عليه يقدمون الطاعة ويعلنون الإسلام .

٢ ـ عقد المعاهدات مع القبائل العربية :

واتبع الرسول صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة سياسة تقوم على عقد اتفاقات ومعاهدات مع مختلف القبائل لكفالة حرية الدعوة من ناحية وكفالة حسن الجوار والمعاملة من ناحية أخرى[١] وقد حققت هذه المعاهدات الآثار

(١) انظر جدول الأعمال العسكرية التي جرت إلى ما قبل غزوة بدر مسلسل ٤ ، ٦ على سبيل المثال .

الاستراتيجية التالية :

- أحـدثت خللا في توازن العـدو وأضعفت قوتـه بطريق غير مباشر وذلك بحـرمـانـه من « حرية العمل » بسبب « تضييق المساحة » التي يستطيع التحرك فيها للعمل ضد المسلمين .
- وحرمت العدو من القوى التي كان يمكنه أن يحالفها ، لكي تناصره في عدوانه على المسلمين ، وخاصة تلك القبائل التي تعهدت بحماية المسلمين كالأوس والخزرج في بيعتي العقبة .
- وحرمت العدو أيضا من أن يتخذ لنفسه « قواعد خارجية » تسمح له بالقيام بعدوان مباشر أو غير مباشر ضد المسلمين .
- وجعلت طريق تجارة قريش إلى الشام محفوفا بالمخاطر ، مما أدى إلى كسادها .

٣ ـ انتزاع المبادأة من يد الأعداء :

روى الإمام أحمد والبخاري عن سليمان بن صُرَد والبزاز برجال ثقات ، وأبو نعيم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهم ، والبهيقي عن قتادة رحمه الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال حين أجلى الله تعالى عنه الأحزاب : « الآن نغزوهم ولا يغزوننا ، نحن نسير إليهم » .

هذا القرار يعد نقطة بارزة في تاريخ الصراع بين المسلمين وأعدائهم في عصر النبوة ، إذ انتقلت به « المبادأة » إلى أيدي المسلمين لأول مرة في تاريخ هذا الصراع ، وترتب على هذا الانتقال آثار بعيدة المدى ، فطوال الفترة التي قضوها في المدينة من يوم الهجرة إلى غزوة الخندق ، كانوا يتلقون هجمات أعدائهم ويواجهونها « بمعارك دفاعية » كان أبرزها غزوة بدر في السنة الثانية للهجـرة ، وغـزوة أحد في السنة الثالثة ، ثم كانت غزوة الخندق في السنة الخامسة التي واجهوا فيها هجوم قريش والقبائل العربية واليهود .

فقـرار الـرسول « الآن نغزوهم ولا يغزونا ، نحن نسير إليهم » معناه أن يتحول المسلمون من الدفاع إلى الهجوم[1] وأن يسيروا إلى أعدائهم بدلا من البقاء انتظارا لضرباتهم ، وبعبارة أخرى فإن معنى القرار أن يتحول المسلمون من حالة « رد الفعل » إلى « الفعل » .

عبقرية القرار :

وتتجلى عبقـرية الرسول القائد صلى الله عليه وسلم في أنه اتخذ هذا القـرار في الـوقت المنـاسب تماما رغم ما يمكن أن يواجه تنفيذه عمليا من تحديات جسام تصيب غيره من القادة بتردد .

ولعل أهم هذه التحديات أن المسلمين في عملياتهم المقبلة ضد قريش سوف يتركون المدينة قاعدتهم الوطيدة ويسيرون أربعمائة كيلومتر في أرض أقل ما يقـال فيهـا أنهـا « أرض غير صديقة » ثم يتجهون نحو مكة قاعدة قريش الـرئيسية بكل ما فيها من قوة بشرية مقاتلة بأعظم حشد ، وبكل ما فيها من « حوافز معنوية » لأهلها للدفاع عنها ، في معركة يدركون تماما أنها « معركة مصير » بالنسبة إليهم . . وليس من شك في أن الرسول القائد صلى الله عليه

---

(١) في بعض الأذهان خطأ في فهم معنى « الهجوم » على أنه يعني العدوان أو الاغتصاب ، والحق أن الهجوم شكل من أشكال العمليات الحربية تتحرك فيه القوة لتوجيه ضربتها إلى العـدو في مواقعـه ، وطبيعة الحرب تجعل الهجوم شكلا من الأشكال الضرورية لتحقيق الأهـداف حتى صار في إطـار العمليات الـدفـاعية ، ومن الأقـوال المشهورة في ذلك : « الهجوم خير وسيلة للدفاع » ، فليس من صواب الرأي أن نعتبر الهجوم مرادفا للعدوان أو منطويا على نواياه ، ولقد أوضح الرسول القائد صلى الله عليه وسلم هذا المعنى وأكده في معارك عصر النبوة فكل الغزوات ، والسرايا التي تحرك فيها المسلمون إلى عدوهم ليوجهوا إليه ضرباتهم هي « عمليات هجومية » تمت في إطار « استراتيجية دفاعية » تستهدف تأمين الدعوة ورد العدوان عليها ، ولم يكن العدوان أو الاغتصاب أو القهر هدفا من أهدافها ، وإنما كانت أهدافها حقا وعدلا وإعلاء لكلمة الله .

وسلم كان مدركـا لحجم هذه التحـديات التي لم يسبق أن واجه المسلمون مثلهـا ، وفي أنه -مع ذلك- كان « مطمئنا » إلى اتخاذ قراره بكل ما له من عواقب ونتائج .

والواقع أن تحليل هذا القرار التاريخي وأسبابه ينطوي على درس عظيم يقدمه القائد المعلم صلى الله عليه وسلم في إدارة الحرب والصراع على أعلى مستوى وهو ما نوضحه فيما يلي :

(١) فشل قريش في تحقيق أهدافها :

لقد ظلت قريش تمتلك زمام المبادأة طوال السنوات الخمس الأولى بعد الهجـرة ، فهـاجمت المسلمين وقاتلتهم في بدر وأحد والخندق ، لكنها لم تستـطع تحقيق هدفهـا الأسـاسي وهو القضاء على الإسلام أو القضاء على المسلمين في موطنهم الجديد ، ثم إنها في غزوتها الأخيرة (الخندق) أرادت أن تدخل مع المسلمين في معركة فاصلة فحشدت لها -لأول مرة في تاريخ الصـراع- كل ما استـطاعت حشـده من القوى الأخرى وهو القبائل العربية واليهود ، لكنها مع ذلك فشلت في تحقيق هدفها .

وهنا تظهر عبقرية الرسول صلى الله عليه وسلم في سرعة اتخاذ القرار المناسب في الوقت المناسب ، فليس من شك في أن عزيمة قريش -بعد ما ألقت بكل ثقلها وبكل ما أضافته إلى هذا الثقل في الصراع- سوف تضعف ، وسـوف يفتـر استعـدادهـا للعودة إلى التجربة مرة أخرى ، وهنا رصد القائد -بفراسته وفهمه لطبائع البشر- « ملامح الضعف » في قوة خصمه ، وأدرك أن الوقت مناسب تماما لتوجيه « الضربة القاضية » : (الآن نغزوهم ولا يغزوننا ، نحن نسير إليهم) .

(٢) تأمين قاعدة المدينة :

أما قاعدة الإسلام في المدينة فقد أصبحت « قاعدة أمينة » يستطيع الرسول صلى الله عليه وسلم أن « يتركها خلفه » ويبتعد عنها ما شاء من مسافات ، « ويغيب » عنها ما شاء من زمن ، ثم « يعود » إليها ليجدها -كما تركها- صلبة قوية أمينة .

- فالمدينة تم تأمينها « من الداخل » بتكوين جبهة داخلية قوية وبتنظيم الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية لكافة سكانها بمقتضى ميثاق المدينة كما ذكرنا .

- وتم تأمينها « من الخارج » بعد المعاهدات والاتفاقات مع مختلف القبائل العربية لكفالة حسن المعاملة والجوار كما ذكرنا .

(٣) كفاءة أجهزة الأمن والمخابرات :

ولا يستطيع أحد أن يقول إن الرسول صلى الله عليه وسلم إذا غادر المدينة في مسير طويل فسوف ينعزل عما يجري في أنحاء شبه الجزيرة مما يعرضه للمفاجأة من أعدائه ، فقد ثبت خلال السنوات الخمس أن للمسلمين أجهزة ذات كفاءة عالية للأمن والمخابرات تتمثل في شبكة من العيون والأرصاد في أنحاء شبه الجزيرة تزودهم بالمعلومات عن نوايا الأعداء وحركاتهم وأبلغ دليل على ذلك أن المسلمين لم يؤخذوا على غزوة أبد . وبالإضافة إلى ذلك فقد نجح المسلمون في المحافظة على أسرارهم وحرمان العدو من كشفها ، ومن ذلك منع رسالة حاطب بن بلتعة من أن تصل إلى قريش قبل غزوة الفتح (١) .

---

(١) راجع كتابنا المدخل إلى العقيدة والاستراتيجية العسكرية الإسلامية ط ٢ ص ١٧٨ - ١٩١ لدراسة أمثلة المخابرات التكتيكية والاستراتيجية في عهد النبي صلى الله عليه وسلم .

(٤) الضغط الاقتصادي على العدو :

والضغط الاقتصادي من الأساليب التي لها آثار استراتيجية في الصراع ، وبدراسة الأعمال العسكرية التي تمت خلال العامين الأول والثاني للهجرة إلى ما قبل غزوة بدر الكبرى يتضح أن هدفها الغالب هو التعرض لقافلة قريش على طريق تجارتها من مكة إلى الشام مما شكل ضغطا اقتصاديا على قريش التي أدركت أن هذا الطريق أصبح محفوفا بالمخاطر ، وخاصة بعد أن عقد الرسول صلى الله عليه وسلم الاتفاقات والمعاهدات مع القبائل العربية . (انظر جدول الأعمال العسكرية إلى ما قبل غزوة بدر) .

وأبلغ تعبير عن آثار هذا الضغط الاقتصادي قول صفوان بن أمية لقومه : « إن محمدا وأصحابه قد عوَّروا علينا متجرنا ، فما ندري كيف نصنع بأصحابه وهم لا يبرحون الساحل ، وأهل الساحل قد وادعهم ودخل عامتهم معه ، فما ندري أين نسلك ، وإن أقمنا في دارنا هذه ، أكلنا رءوس أموالنا ، فلم يكن لها من بقاء ، وإنما حياتنا بمكة على التجارة إلى الشام في الصيف، وإلى الحبشة في الشتاء » . فأشار عليه الأسود بن عبد المطلب أن يترك طريق الشام ويتحول إلى طريق العراق ففعل ، وتجهز من البضائع والفضة بما قيمته مائة ألف درهم ، غير أن الرسول صلى الله عليه وسلم بعث زيداً في مائة راكب فاستولى على القافلة وهي في طريقها عند ماء يقال له (القَرَدة) من مياه نجد[1] ، فكانت ضربة اقتصادية لها أسوأ الأثر على حياة قريش ، إذ لم يعد أمامها إلا التجارة مع الحبشة ، وهكذا أدى الضغط الاقتصادي دورا كبيرا في الصراع أدى بقريش إلى أن تعيد النظر في موقفها ضد المسلمين .

---

(١) محمد حسين هيكل : حياة محمد ط ٢ ص ٢٧٨

الأعمال العسكرية التي جرت إلى ما قبل غزوة بدر[1]

ر.م.	إسم العملية	المسلمون	المشركون	المكان	التاريخ	النتائج
١	سرية حمزة	٣٠ رجلاً بقيادة حمزة بن عبدالمطلب	٣٠٠ بقيادة أبي جهل ابن هشام	العيص	رمضان سنة ١ هـ	حجز بين الفريقين مجدي بن عمرو الجهني
٢	سرية عبيدة ابن الحارث	٦٠ بقيادة عبيدة ابن الحارث	أكثر من ٢٠٠ بقيادة أبي سفيان بن حرب	ماء بالحجاز بوادي رابغ	شوال سنة ١ هـ	جرت بين الفريقين مناوشة بسيطة
٣	سرية سعد بن أبي وقاص	٢٠ بقيادة سعد بن أبي وقاص	—	الخرار	ذو القعدة سنة ١ هـ	فرت قافلة قريش
٤	غزوة ودان	٢٠٠ بقيادة الرسول ﷺ	—	ودان	صفر سنة ٢ هـ	حالف الرسول ﷺ بني ضمرة
٥	غزوة بواط	٢٠٠ بقيادة الرسول ﷺ	١٠٠ بقيادة أمية بن خلف الجمحي	بواط	ربيع الأول سنة ٢ هـ	أفلتت القافلة بسلوك طريق غير طريق القوافل المعتاد
٦	غزوة ذي العشيرة	٢٠٠ بقيادة الرسول ﷺ	قوة من قريش وبني مدلج وبني ضمرة بقيادة أبي سفيان	العشيرة	جمادى الأولى سنة ٢ هـ	وادع الرسول ﷺ بني مدلج وحلفاءهم بني ضمرة
٧	غزوة بدر الأولى	٢٠٠ بقيادة الرسول ﷺ	قوة خفيفة بقيادة كرز بن جابر الفهري	وادي سفوان	جمادى الآخرة سنة ٢ هـ	لم يدرك المسلمون القوة التي أغارت على مراعي ضواحي المدينة واستاقت بعض إبل وأغنام المسلمين.
٨	سرية عبدالله بن جحش	١٢ رجلاً بقيادة عبدالله ابن جحش	٤ رجال بقيادة عمرو ابن الحضرمي	نخلة	رجب سنة ٢ هـ	اندفعت المعززة إلى القتال برغم أن مهمتها كانت الاستطلاع فقط فقتلت عمرو ابن الحضرمي وأسرت رجلين وفر الرابع إلى قريش

(١) اللواء الركن محمود شيت خطاب : الرسول القائد ص ٨٢ - ٨٣ .

(٥) عهد الحديبية وآثاره الاستراتيجية :

في ذي القعدة من السنة السادسة للهجرة عقد الرسول صلى الله عليه وسلم عهد الحديبية بين المسلمين وقريش كان بمثابة هدنة « يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض » فكانت له آثار استراتيجية بعيدة المدى كما يلي :

(١) أصبحت المنطقة التي تقع جنوب المدينة منطقة أمينة بالنسبة للمسلمين بعد أن كان قبل ذلك مصدر الخطر الأكبر الذي يهدد الدعوة ويهدد المسلمين .

(٢) وانحصر بذلك الخطر في المنطقة الشمالية التي تضم خصمين هما اليهود في خيبر وما حولها ، والأعراب شمالي المدينة ، الأمر الذي يمكن المسلمين من القضاء على هذين الخصمين ، ليصبحو بعد ذلك متفرغين للتحول -في الوقت المناسب- نحو الخصم الأكبر : قريش وإلى هدفهم الرئيسي : مكة المكرمة .

(٣) وكان من نتائج الهدنة التفريق بين قريش وحلفائها الطبيعيين يهود خيبر، الذين كانوا لا ينفكون يحرضون القبائل على الرسول صلى الله عليه وسلم .

(٤) كما أنها فتحت المجال للرسول صلى الله عليه وسلم لعقد مخالفات مع القبائل التي لم تكن تطمئن لمخالفته بسبب قوة قريش لوجود الكعبة بمكة ، وخير دليل على ذلك إعلان خزاعة حلفها للرسول بعد العهد مباشرة[١] ، وقد ربح المسلمون بذلك حليفا قويا له « أهمية استراتيجية خاصة » لقرب دياره من قريش . ولقد كانت خزاعة تميل قلبيا إلى المسلمين قبل الهدنة ، وكان الإسلام قد انتشر بين أفرادها ، ولكنها لم

---

(١) قال ابن اسحق : « فتواثبت خزاعة فقالوا : نحن في عقد محمد وعهده » (ابن هشام : السيرة النبوية حـ ٣ ص ٣١٨)

تستطع أن تخالف المسلمين قبل هذه الهدنة لأن ذلك يهدد مصالحها الـدينية لوجـود البيت الحـرام بمكـة التي تسيطر عليهـا قريش ، هذا بالإضافة إلى تهديد مصالحها الأخرى .

(٥) وقد يسرت الهدنة للمسلمين الوقت وهيأت لهم الظروف لنشر دعوتهم بأمان ، وفي ظل هذا المناخ المستقر زادت قوة جيش المسلمين حتى أصبحت عشـرة الآف[١] مقـاتل في فتح مكة بعد أن كانت في غزوة الخندق ثلاثة آلاف ، وقد تحققت هذه الزيادة في زمن لم يتعد ثلاث سنوات (انظر لوحة تطور القوة البشرية في عصر النبوة) .

(٦) وقد كسب المسلمون عطف كثير من القبائل ، وكثير من قريش نفسها ، وكثير من أهل المنطقة المجاورة لقريش بسبب صد قريش المسلمين عن زيارة البيت الحرام وتعظيمه ، وهو الهدف الذي خرج إليه الرسول صلى الله عليه وسلم من المدينة من أجله ، وقد سهل ذلك في عملية فتح مكة على المسلمين فيما بعد .

(٧) وخير ما يعبر عن الآثار الاستراتيجية لعهد الحديبية قول أبي بكر رضي الله عنه : « لم يجلب نصر للإسلام ما جلب صلح الحديبية » ، ثم نزل في هذا النصر[٢] قول الله تعالى « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » (الفتح ١) .

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية حـ ٣ ص ٣٢٢

(٢) المرجع السابق : حـ ٣ ص ٣٢٠

(٦) التحضير لتحقيق الهدف الاستراتيجي :

لقد كان فتح مكة بطبيعة الحال الهدف الاستراتيجي [١] للمسلمين وخاصة بعد انتزاع المبادأة من أعدائهم بعد الخندق (كما ذكرنا) ، لكن الفتح لم يقع إلا في رمضان من السنة الثامنة للهجرة أي بعد الخندق بسنوات ثلاث تقريبا .

والواقع أن المسلمين التزموا بعهد الحديبية بكل دقة وأمانة ، حتى نقضته قريش بدعمها ومساندتها لحلفائها بني بكر في العدوان على خزاعة حلفاء المسلمين ، فحلت بذلك اللحظة المناسبة للفتح ، لكن دراسة الأحداث التي وقفت خلال فترة الهدنة تكشف عن عدة أمور تعد درسا في التحضير لتحقيق الهدف الاستراتيجي يُعلِّم المسلمين أن تكون خطواتهم نحو أهدافهم محسوبة بكل الدقة والإحكام ، وأن يبتعدوا عن العمل غير المتسرع أو غير المخطط ، وهو ما نوضحه فيما يلي :-

(١) توطيد الأمن في المنطقة الشمالية :

لقد انحصر الخطر بعد الحديبية -كما ذكرنا- في المنطقة الشمالية ، وكان من الضرورات الحيوية لتأمين تحرك المسلمين نحو هدفهم الرئيسي في الجنوب ، القضاء على ذلك الخطر ، والباحث المدقق يلاحظ أن الغالبية العظمى لسرايا القتال بعثت خلال الفترة من بعد الخندق إلى الفتح فبلغت أكثر من ثلاثة أرباع مجموع عدد السرايا ، وقد حققت هذه السرايا تأمين المنطقة

---

(١) « الهدف الاستراتيجي » : هو الهدف الذي يسبب للعدو من الأضرار ما يؤدي إلى إحداث تغييرات حادة في الموقف العسكري والسياسي ويؤثر تأثيرا بالغا على تطور الصراع المسلح ككل ، وهذا هو ما حدث في شبه الجزيرة بعد الفتح (انظر المصطلحات العسكرية ص ٥٢٧ ـ ٥٢٩ من كتابنا المدخل إلى العقيدة والاستراتيجية الإسلامية)

تطور القوة البشرية في عصر النبوة

يقول الزُّهْري في صلح الحديبية : فما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه ، إنما كان القتال حيث التقى الناس ، فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب ، وأمن الناس بعضهم بعضا ، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة فلم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئا إلا دخل فيه ، ولقد دخل في تينك السنتين مثلُ من كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر . قال ابن هشام : والدليل على قول الزهري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج إلى الحديبية في ألف وأربع مائة ، في قول جابر بن عبد الله ، ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف » (ابن هشام : السيرة النبوية حـ ٣ ص ٣٢٢)

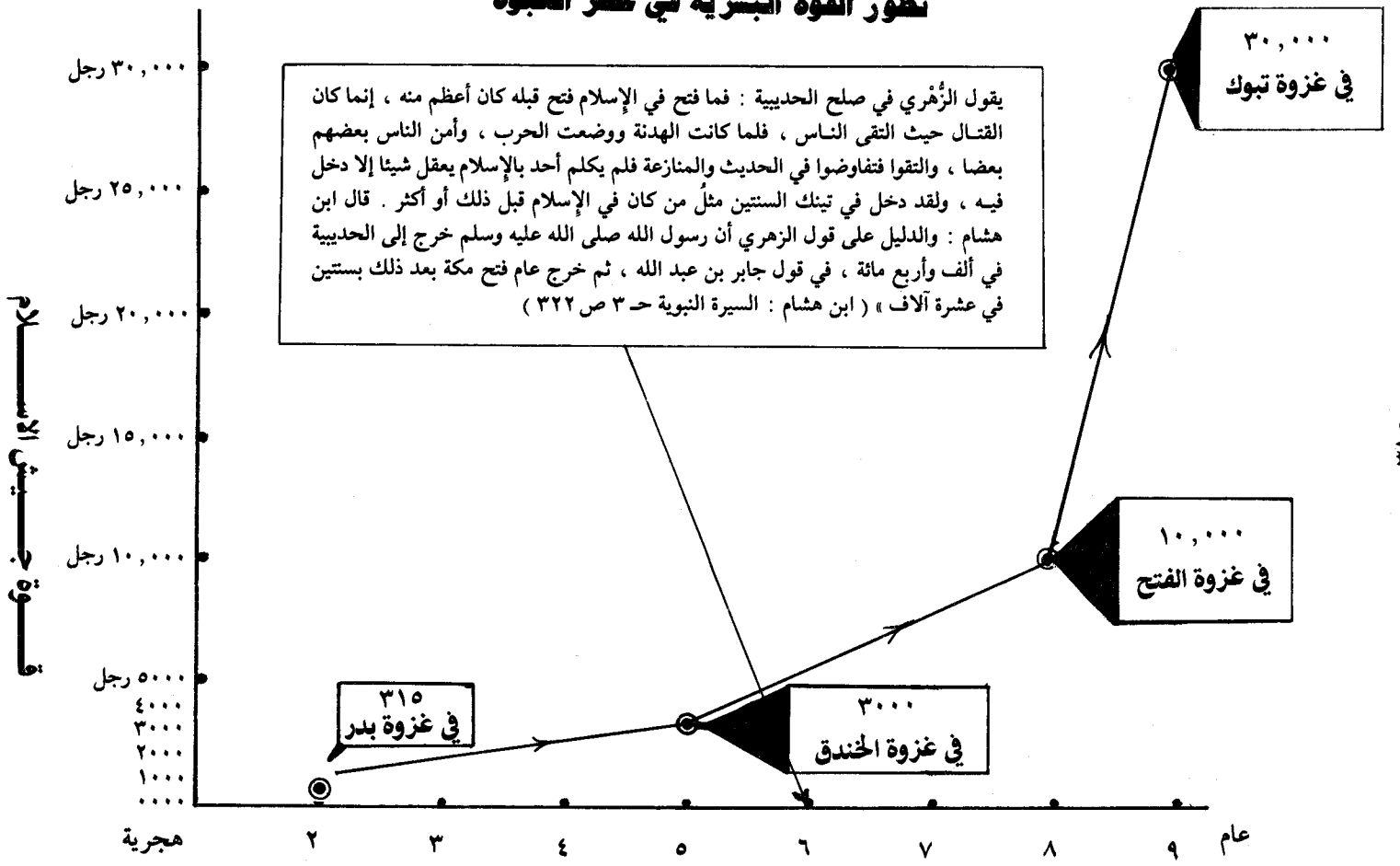

الشمالية حتى حدود الشام والعراق ، والسيطرة على القبائل العربية في تلك المنطقة مثل هوازن ، وبني كلاب ، وبني مرة ، وبني عوال ، وبني عبد ابن ثعلبة ، وغطفان ، وبني سليم ، وبني الملوح ، وجهينة ، والقبائل التي عاونت الروم ضد المسلمين ، أضف إلى ذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم قاد أربع غزوات (عدا الحديبية) هي بني قريظة وبني لحيان وذي قرد وخيبر . (١)

(٢) القضاء على اليهود عسكرياً :

وكان اليهود يشكلون مصدر الخطر الثاني في المنطقة الشمالية ، فقد فتحوا -بنقضهم للعهد- « جبهة ثانية » ضد المسلمين كان عليهم أن يواجهوها بالردع الذي تستحقه ، فكانت غزوة بني قريظة عقب الخندق مباشرة ، ثم غزوة خيبر المعقل الرئيسي لليهود في المحرم من السنة السابعة للهجرة ، ولقد كانت غزوة خيبر بمثابة الضربة القاضية ، إذ كان بها سبعة حصون تكتنفها البساتين ، وكان أهلها أقوياء مسلحين استماتوا في الدفاع ؛ إذ كانوا يعلمون علم اليقين أن اندحارهم معناه القضاء الأخير على بني إسرائيل في شبه الجزيرة .

وهكذا أمن الرسول صلى الله عليه وسلم بأس اليهود ، وآمن بأنهم لن تقوم لهم بعد ذلك قائمة ، وبأنه يستطيع بعد ذلك أن يتحرك جنوبا نحو هدفه الرئيسي .

(٣) زيادة قوة الجيش ورفع كفاءته القتالية :

لقد قفزت قوة الجيش -بعد عهد الحديبية كما ذكرنا- من ثلاث آلاف في غزوة الخندق إلى عشرة آلاف عند الفتح ، كما ارتفعت كفاءة الجيش القتالية

---

(١) انظر الرسول القائد ص ٨٢ ، ١٥٤ ، ٢١٠ ، ٢٥٦ ، ٣١٤ ، ٤١٢

إلى أقصى حد بعد أن بلغ رصيده من عمليات القتال قرابة ستين عملية ، قاد منها الرسول صلى الله عليه وسلم أربعا وعشرين غزوة ، وقاد أصحابه ما بقي منها ، ومارس المسلمون في هذه العمليات كل أشكال القتال ، من دفاع ، وهجوم ، ومطاردة ، وإغارات ، وقتال في القرى ، وحصار المواقع الحصينة ، وغيرها ، كما أصبح للجيش عدد كبير من القادة الأكفاء القادرين على قيادة العمليات المستقلة والكبيرة .

(٤) إضعاف إرادة قريش القتالية :

وأصيبت إرادة قريش القتالية بالضعف نتيجة لعدة عوامل نذكر منها ما يلي :-

- تجريدها من الحلفاء وخاصة اليهود بعد القضاء عليهم عسكريا .
- انفتاح المجال أمام الرسول صلى الله عليه وسلم -بعد الحديبية- لمحالفة القبائل التي كانت تخشى من قوة قريش وبطشها .
- انتشار الإسلام جعل جانبا من قريش يدين بالإسلام ، وجانباً آخر باقياً على الشرك ، فأصبح من المستحيل أن تجتمع كلمتها على حرب المسلمين .

(٧) السماحة في الفتح :

ولقد فتح الرسول صلى الله عليه وسلم مكة بلا قتال ، ورغم أن كل الظروف كانت مهيأة أمامه لتحقيق نصر عسكري ساحق على قريش ، إلا أنه عليه الصلاة والسلام قرر أن يكون الفتح بغير قتال ، ونفذ قراره بالفعل ، ورغم كل ما فعلت قريش ضد الإسلام والمسلمين ، فإنه عليه الصلاة والسلام لم يأت بما يأتيه المنتصر عادة من أفعال الانتقام والاستبداد وإملاء الشروط ، بل كان تصرفه في أهل مكة وهم ينتظرون ما هو فاعل بهم غاية في السماحة حين

قال لهم : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » ، ولقد كان لهذه السماحة آثار استراتيجية بعيدة المدى كما يتضح مما يلي :-

(١) فقد حقق المسلمون هدفهم الإستراتيجي وهو تأمين الدعوة إذ أقبلت قريش على الإسلام بعد أن كانت الخصم الرئيسي في مواجهته ، وتوحدت شبه الجزيرة العربية القريبة كلها تحت ظل الإسلام [١] فأصبحت بذلك قوة ذات عقيدة واحدة وهدف واحد .

(٢) وكسب جيش الإسلام قوة جديدة ، فإن قريشا لم تقبل على الإسلام فحسب ، بل حملت رايات الجهاد في سبيل الله ، وتحولت اتجاهاتها من أشد الناس عداوة للإسلام إلى أحرص الناس على رفع راية الجهاد في سبيله ، وليس هذا فحسب ، بل كان من عرب شبه الجزيرة قادة عسكريون أفذاذ ، قدر لهم أن يكونوا من أعظم قادة الحروب في التاريخ .

(٣) ولم تنحصر الآثار الاستراتيجية لهذه السماحة في عصر النبوة وحده ، بل إنها امتدت إلى عصر الفتوحات ، فكانت الشعوب المختلفة ترحب بالمسلمين الفاتحين وتنضم إليهم أحيانا لتنجو من عسف الفرس والروم ، وتستظل بوارفٍ من العدل والسماحة والحرية ، ولقد تحقق لهذه الشعوب ما أمّلته ، وسرعان ما دان أكثرها بالإسلام عن رغبة واختيار ، وسرعان ما صارت البلاد المفتوحة موئلاً للإسلام ، وصار أهلها من دعاته وحملة لوائه ومن المجاهدين في سبيله ، وقد أشار ذلك دهشة المشير مونتجمري فقال في كتابه (الحرب عبر التاريخ) :

---

(١) لم يبق على الشرك إلا بعض القبائل مثل هوازن وثقيف ، لكنها لم تشكل تهديدا له وزنه الاستراتيجي بعد انهيار أكبر حصن للشرك .

« من العجيب أن القوة الرئيسية للجيوش الإسلامية في فتح أسبانيا بين عامي ٧١٠ ـ ٧١٢ ميلادية كانت مشكلة من الليبيين والتونسيين !! » ولم تفت هذا القائد المحنك الآثار الاستراتيجية لسماحة الإسلام ، فقال في تعليله لسر الفتوحات الإسلامية وكيف وصلت إلى ذلك المدى المذهل : « إن المسلمين كانوا يُستقبلون في كل مكان يصلون إليه كمحررين للشعوب من العبودية ، وذلك لما اتسموا به من تسامح وإنسانية وحضارة ، فزاد إيمان الشعوب بهم ، وقد ظلت جميع المناطق التي فتحها المسلمون في القرن السابع حتى يومنا هذا -ما عدا إسبانيا- تحتفظ بالدين الإسلامي ، وكذلك بالعادات والتقاليد والتراث الإسلامي » (١)

والأمر الجدير بالنظر أن رجال الاستراتيجية قد اتفقوا في عصرنا على عدة مباديء في « إدارة الحرب » تقترب من المباديء التي قررها الرسول صلى الله عليه وسلم منذ أربعة عشر قرنا ، فهم يقررون مثلا « أن الغرض من الحرب يجب أن يكون الحصول على « سلم أفضل » وأنه من الضروري أن يضع القادة في اعتبارهم -وهم يديرون الحرب- السلم الذي يرغبون فيه ، وأن على القائد أن يهيء الظروف المناسبة لقيام سلام حقيقي ومستقر بعد انتهاء الحرب ، وأن يمتنع عن استخدام أساليب القهر والتسلط الغاشم في أثناء الحرب أو بعدها ، التي تؤدي إلى أن يكون السلم مشوها لاحتوائه على جراثيم حرب تالية ! » (٢) .

---

(١) فيكونت مونتجمري : الحرب عبر التاريخ -تعريب العميد فتحي عبد الله النمر- حـ ٢ ص ١٨٨ ـ ١٨٩

(٢) ليدل هارت : الاستراتيجية ـ الاقتراب غير المباشر ص ٢٢٠

ولقد حفل التاريخ بأدلة قاطعة على أن الشطط والمبالغة في إدارة الحروب لا يهيئان مناخا لقيام سلام مستقر أو دائم ، ومنها مثلا ما حدث في الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ ـ ١٩١٨ فإن المعاملة القاسية التي لقيتها ألمانيا على يد الحلفاء المنتصرين تحت شعارا « ويل للمغلوب » ، والعقوبات الإقتصادية التي أثقلت كاهل الإقتصاد الألماني ، جعلت السلام الذي جاء بعد تلك الحرب « مشوها يحمل معه جراثيم حرب تالية » ، وهذا هو ما حدث بالفعل ، فإن تلك القسوة بالذات كانت هي الدافع الرئيسي لهتلر في العمل بكل الوسائل على إنهاض من ألمانيا ، وبالتالي سرعة نشوب الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ أي أن السلام لم يدم أكثر من عشرين سنة .

تم البحث